الثقافة المصرية

وكيف تستفيد من ثقافة الجاحظ

الأدبية والعلمية والسيكولوجية

للاستاذ مصطفى عبد اللطيف المحامى

دعونا فى مقال نشر بالسياسة الاسبوعية ألى الرجوع الى الثقافة العربية بدوية كانت أم حضرية ، وأهبنا بالمثقفين ثقافة عالية أن يصرفوا جهودهم ألى بعث تلك الثقافة ، وتغذية ثقافتنا المصرية بمادة مفيدة صالحة ، وذكرنا فى ذلك المقال أسماء بعض زعماء الثقافة العربية . ومن بينهم أبو عثمان بن بحر الجاحظ أحد أعلام العصر العباسى ومن أكبر زعماء الفكر الأسلامى .

وهانحن أولاء نعود ألى هذه الدعوة ، وتأييد تلك الفكرة ، بذكر شىء من ثقافة الجاحظ الواسعة ، تلك الثقافة التى يباهى بها العرب ويعجب لوفرتها الجيل الحاضر ، لأنها ثقافة تزيد فى الوفرة على ثقافة جوت الألمانى ، وديدرو الفرنسى ، ودستوفسكى الروسى ، وغيرهم من ذوى الثقافات الواسعة الرفيعة .

والحق أنى بعد أن تصفحت جمهرة من مؤلفات الجاحظ وما كتب عنها ، لم أجد وصفا أصدق عليها من أنها كالبحر اللجب الزاخر ، تحوى الجوهر كما تحوى الصدف ، فأنت أذا تناولت تلك المؤلفات ألفيت بحوثا شائقة فى الأدب ، وملاحظات قيمة فى العلم ، ومعلومات رائعة فى سيكولوجية الأنسان والحيوان ، وأفكارا كالأمواج متزاحمة متلاحمة تشرق عليها أنوار الثقافات الفارسية واليونانية والهندية .

هى ثقافة ثرة متعددة النواحى يتطلب تصويرها كتبا مفردة ، ولكنى سأحاول أن أتناول فى اختصار ثلاث شعب منها ، وهى ثقافة الجاحظ : الأدبية ، والعلمية ، والسيكولوجية . وا كتفى برسم خطوط لتلك الثقافات تاركا أخراج صورة كاملة لها لمن هم أقدر منى عليها ، وغايتى من المقال كما سبق أظهار روائع الثقافة العربية ، وبيان صلاحيتها لتغذية ثقافتنا المصرية ، أذ فيها خير مادة لنا وخير ثقافة .

ثقافة الجاحظ الادبيـة

ونحن أذا قلبنا البصر فيما صدر عن الجاحظ من المؤلفات الأدبية الفصيحة الكثيرة ، أدركنا قطعا نفع تلك المؤلفات لثقافتنا ، وصلاحيتها لتغذية ألهاماتنا . ويحتاج بحث هذه المؤلفات ألى كتاب مفصل . ولكنى سأقصر بحثى على وصف رسالة الجاحظ الموسومة « بالتربيع والتدوير » وهذه الرسالة اعتقد أنها تكفى لرسم صورة تامة عن أدب الجاحظ وأسلوبه الرصين المونق ، ومعانيه البليغة ، وميله ألى خلط الجد بالهزل فى كتاباته . وهذه الرسالة مدبجة فى احمد بن عبد الوهاب من معاصرى الجاحظ ومن ذوى النفوذ والمقربين لدى الخلفاء ، وهى تمثل فى أوضح بيان جمال الرصف ، والقدرة على ملكية العبارة . ومن المستحسن أن أصف هذه الرسالة وآتى بفقر منها : ابتدأ الجاحظ الرسالة بالقدح فى احمد والزراية بعقله ، وطرح عليه مائة سؤال منها الخفيف ومنها الثقيل ، ومنها الجدى ومنها المضحك ، حتى أذا ما آذاه وجرحه جرحا يكاد يقطر دما ، وأدرك فداحة ماصنع ، أسرع الى قلبه فمسحه من الدم ودهنه بالمرهم ليأسو الجرح ، ويداوى مابضع سنان القلم ، فأخذ يقدم وجه العذر ، ويدير اليراع بالمغفرة ، ويزكى صفات احمد ويطنب فى مدحه ويسرف ، فهاهوذا يسم احمد فى مفتتح الرسالة بالادعاء وينعته بالجهل يقول . — «كان احمد بن عبد الوهاب مفرط القصر ، ويدعى أنه مفرط الطول ، وكان جعد الأطراف قصير الأصابع ، وهو يدعى السباطة والرشاقة ، وكان كبير السن متقادم الميلاد ، وهو يدعى أنه معتدل الشباب حديث الميلاد . وكان ادعاؤه لأصناف العلم على قدر جهله بها ، وتكلفه للأبانة عنها على قدر غباوته فيها . . . . وكان قليل السماع غمرا . . . يعد أسماء الكتب ولا يفهم معانيها ، ويحسد العلماء من غير أن يتعلق فيهم بسبب » .

واستطرد يقول بعد كلام طويل فصيح :— «فلما طال اصطبارنا حتى بلغ المجهود منا ، وكدنا نعتاد مذهبه ونألف سبيله ، رأيت أن أكشف قناعه ، وأبدى صفحته للحاضر والبادى ، وسكان كل ثغر وكل مصر بأن أسأله عن مائة مسألة أهزأ به فيها وأعرف الناس مقدار جهله » .

وأخذ يلقى عليه الأسئلة فى خلال الرسالة ومنها قوله :— «خبرنى ماتقول فى الفراسة ؟ وماتقول فى أسرار الكف ؟ وماتقول فى النظر فى الأكتاف ! وخبرنى متى تستغنى الحية عن الغذاء ! ومتى ينتفع الضب بالنسيم ! وخبرنى ما السحر وما الطلسم وما الدنهش ! وما قولهم فى اللبان الذكر ! ؟ » .

وبعد أن سقاه سخراً وأشبعه تهكما وجعله ضحكة الضاحكين

وهزأة الساخرين ، انبرى يشدو بذكره ويتغنى بمدحه ، مما يجعلنا نعجب من الجاحظ ومن تناقضه الظاهر ، ومن انقطاع الملابسة المنطقية بين هجوه الفارط المفرط ، ومدحه اللاحق المفرط . استمع اليه يقول فى مدح أحمد :— « وهل على ظهر الأرض جميل حسيب ، أو عالم أديب إلا وظلك أكبر من شخصه ، وظنك أكثر من علمه ، واسمك أفضل من معناه ، وحلمك أثبت من نجواه ، وصمتك أفضل من فحواه ! » . . ثم تأخذه الأنفة وتغطيه العزة ، فيتسامى على أحمد بالمعرفة ويتفاضل بالحكمة يقول : — فأنت والله ياأخى تعلم علم الاضطرار وعلم الاختيار وعلم الأخبار انى أشد منك عقلا ، وأظهر منك حزما ، وألطف كيدا ، وأكثر علما ، وأوزن حلما ، وأخف روحا ، وأكرم عينا . . . وأنت رجل تشدو من العلم ، وتنفق من الأخبار وتموه نفسك ، وتعز من قدرك ، وتتهيأ بالثياب وتتنبل بالمراكب » . . . . وأخيراً يحس الجاحظ شدة ما ساقه من الذم اليه فيعمد الى تلطيفه ببيانه الساحر الجذاب فيقول : — « فان أنت عاقبتنى ، فقد رغبت عن النبل والبهاء ، وعن السؤدد والسناء ، وصرت كمن يشفى غيظا أو يداوى حقداً أو يظهر القدرة أو يحب أن يذكر بالصولة .

ويشفع هذا بكلام يتنفس الملق والدهان يقول : — « وأنى لك بالعقاب وأنت خير كلك ، ومن أين اعتراك المنع ، وأنت أنهجت الجود لأهله ؟ وهل عندك الا مافى طبعك ؟ وكيف لك بخلاف عادتك ؟ »

وأكتفى بهذا الاقتباس الطويل ، الذى تعمدت اطالته لاثارة القارىء لتلاوة هذه الرسالة برمتها ، ليتذوق جمالها الفنى وحلاوة عباراتها وعذوبة مائها ، وهذه الرسالة عندى لا تمثل الجمال الفنى للعبارة ، بل انها تمثل جمال المعنى وبلاغته .

وللجاحظ رسائل أخر شائقة متقدمة فى الفصاحة متناهية فى الرصانة والسلاسة والجزالة ، وهى آية قائمة على تفوق الرجل فى أدب المقال واحسانه فيه أقصى الاحسان . والمجال يطول بذكر شىء عن هذه الرسائل ونسرد أسماء بعضها ليدرك القارىء كيف تنبه الجاحظ منذ قرون لمعالجة موضوعات تهز العواطف والمشاعر والانفعالات . فرسالة البخلاء تحوى قصصاً غريبة عن بخلاء عصره وعاداتهم ، ورسالة الحاسد والمحسود تهجن الحاسد وتذم انفعال الحسد . ورسالة « العشق والنساء » تصف عاطفة العشق وكيف يخنع لها الجبابرة وكيف خنع لها الحجاج الطاغية . وكتابه « المحاسن والأضداد » تناول فيه ذكر محاسن كثيرة من العواطف الفردية مثل عواطف الصدق ، والعفو ، والمودة ، والوفاء ، والشجاعة ، والسخاء ، وحب الوطن ؛ ومدح فيه انفعال الغيرة وذمه فى صفحات معدودة ، وهذا الكتاب لاتظهر فيه شخصية الجاحظ الخلاقة لأن مادته منقولة عن الأعراب . وعلى العموم فمؤلفات الجاحظ الأدبية بجملتها تفتق اللسان ، وتقوى العارضة ، وتمدنا بثروة واسعة من التعابير الجميلة ، وتعطر أفئدتنا وتنعش صدورنا بمعانيها اللطيفة الفريدة . يقول المسعودى فى هذا الصدد : — « كتب الجاحظ تجلو صدأ الأذهان وتكشف واضح البرهان . . . ويقول ابن العميد : « كتب الجاحظ تعلم العقل أولا ، والأدب ثانيا . . »

ثقافة الجاحظ العلمية

ويعنى ابن العميد بهذا القول أن يقول أن كتب الجاحظ تعلم العلم أكثر من أنها تعلم الأدب ، والواقع ان كتب الجاحظ الأدبية لا العلمية تتضمن ملاحظات بارعة ، وأشارات دقيقة ، ومعلومات قيمة ، يمكن أن تبنى عليها بحوث علمية رائعة

حدثنى أحد المهتمين بالثقافة العربية أنه قرأ رسالة التفاح للجاحظ فى مكتبة بألمانيا ، فوجد بها ملاحظات وتجاريب للجاحظ مدهشة منها ان الجاحظ كان يكتب بمادة كيماوية بعض الأسماء على التفاحة قبل نضجها . فتظهر الأسماء على التفاحة بعد النضج ، وكأنها خلقت على هذه الصورة ، وكأن الاسماء نقشت على التفاحة نقشاً طبيعياً ، وذكر أن الجاحظ أبان فى هذه الرسالة كيف تتلون التفاحة فى الطبيعة : فالقمر يخلع عليها اللون الأصفر ، والشمس تهبها اللون الأحمر . وهذه الحقائق لا أعلم مبلغ صدقها . ولكنى أثبتها بقصد الأثارة للبحث عن هذه الرسالة ونشرها . ولاشك فى أن رسائل الأدب لاتخلو من معلومات مفيدة للعلم ، فما بالنا بالرسائل والكتب العلمية مثل كتب ـ النبات ـ والمعادن ـ والكيمياء ـ والطب ـ وغيرها التى لم نطلع عليها وا أسفاه الى الآن ، والتى أفاد منها الغربيون واستقوا آراءهم ، فقد جاء فى دائرة المعارف الاسلامية أن كازوينى . ودميرى اعتمدا فى بحوثهما العلمية على كتاب الحيوان والنبات للجاحظ ، ونحن وان كنا قد عثرنا فى مطالعاتنا على طائفة من حقائقه العلمية ، فأن هذه الحقائق تعتبر نقطة من محيط . وشعاعة من شمس ، قد يهدف ذكرها فى هذا الموضع الى سوء التقدير ، وغباوة الحكم ، ولهذا فأنى اكتفى هنا بتوضيح مذهبه فى البحث ، وطبعه العلمى ، وحبه للتحقيق والتدقيق ، فهاهو ذا يقدم لأحد كتبه فى الحيوان بالتعوذ بالله من أن يدعوه شغفه باتمام كتب الحيوان الى أن يصل الصدق بالكذب ، أو يدخل الباطل فى تضاعيف الحق . أو يتكثر بقول الزور ، أو يتلمس تقوية ضعفه

باللفظ الحسن، وستر قبحه بالتأليف المونق، وهذه الأقوال لا تصدر الا من رجل وهب ضميرا علميا يزعه عن الأوهام، وينزهه عن ذكر المغالط، ويدعوه الى التثبت من العلة، وتنقية الثقة من الريبة، وتطهير الحجة من الشبهة.

وأنا لنراه فى كتبه ومؤلفاته يستند كثيرا الى التجربة، ويعتمد على الملاحظة، فاذا ما أعوزته التجربة، ولم تتيسر له الملاحظة، رجع الى ثقة من الثقات للمذاكرة والمناقشة، فأذا لم يجد الثقة الذى يعتمد عليه ويتذاكر اليه، ربأ به ضميره عن نقل المعارف نقلا مهما كان مصدرها. فهاهوذا فى كتب الحيوان تناول ذكر كثير من الحيوان والطير والحشرات، ورجع الى ما كتب أرسطو فى الحيوان، وأخذ عنه بعض ماحققه بنفسه أو قامت التجربة على صدقه، ورفض أن يثبت فى كتبه معلومات غريبة عنه، فنراه مثلا لم يكتب شيئا عن «السمك» مع ان ارسطو أفاض وأشبع القول فى هذا الموضوع؛ ولكن الجاحظ أبى أن ينقل عن ارسطو شيئا فى هذا البحث؛ وعلة ذلك أنه لم تتوفر له الملاحظة عن السمك وعن طباعه وأحواله، وأنه سأل البحريين عن بعض الحقائق الواردة فى كتب ارسطو فلم يصل منهم على قول محقق؛ لهذا ترك هذا الباب كلية، ولم يكتب فيه حرفا.

وأنا لنتمنى أن نجد مثقفا مصريا أو شرقيا يخصص نفسه؛ وينفق عمره، فى التنقيب عن كتب الجاحظ العلمية فى مظان وجودها ومحال مكامنها. وينقلها الينا ليخدم بذلك الثقافة المصرية. لأن البحوث التى لدينا عن الجاحظ كلها موجزة مجملة؛ وكلها تركت الناحية العلمية جانبا. فالسندوبى قصر بحثه الواسع على ـ أدب الجاحظ ـ وترك علمه. واستقى مادته من جمهرة صالحة من الكتب الأدبية، والاستاذ خليل بك مردم كتب بحثا مجملا مفيدا عن الجاحظ وثقافته. والأستاذ أحمد أمين كتب فصلا بديعا موجزا عن الجاحظ، ومس الناحية العلمية مسا خفيفا. وليس من شك فى أننا فى حاجة الى من يدرس الجاحظ درسا واسعا من جميع نواحيه. واليوم الذى نجد هذا الرجل هو اليوم الذى نقع فيه على ثقافة ممتعة. ونواح طريفة للتفكير العربى.

ثقافة الجاحظ السيكولوجيه

ومن النواحى الطريفة لثقافة الجاحظ الناحية النفسية أو السيكولوجية. وهذه الناحية ماثلة بجلاء فى طائفة من كتبه. وهى أشد ما تكون جلاء فى كتب الحيوان السبعة. فقد تناول فى هذه الكتب نفسيات الحيوان والطير والحشرات، وتحدث عن أخلاقها وطباعها وعاداتها، وضمنها معلومات عجابا وملاحظات دقاقا تشهد بسعة ثقافة الجاحظ، وبأنه أنفق عمرا طويلا فى معاشرة الطير ومؤالفة الحيوان، ومراقبة الحشرات، وانه هام من أجل ذلك فى الغياض وتوغل فى بطون الأودية، وركب البحار، وسكن الصحارى، ونبض قلبه مع النبات. واهتز لسحر الطبيعة. ففى كلامه عن الحيوان تحدث عن نبالة الكلب، وذكر انه يتخير انبل موضع فى المجلس، وتحدث عن القط وذكر أنه لئيم خؤون وشره شديد الشراهة. وفى الوقت نفسه يؤثر أولاده بالاكل على نفسه!

وتكلم عن الديك وأيثاره الدجاج على نفسه فى سن الشباب؛ فاذا هرم صار أنانيا لا يعرف الا نفسه. وتكلم عن الفيل وجرأة قلبه، وقوة عزمه، بينما هو يفزع من القط فزعا شديدا! وتكلم عن اليربوع وسعة حيلتها، وأنها علمت الفرس والروم الاحتيال، واتخاذ المطامير على تدبير بيوتها. وأفاض فى ذكر عداوة الحيوان بعضه لبعض، فالأسد عدو للكلب يشتهى لحمه، والذئب يشتهى لحم الثعلب، والثعلب يصيد القنفذ وهكذا. وفى الفصول التى عقدها عن الطير أفاض فى ذكر الحمام والعصافير. فذكر ان العصافير لا تقيم فى الدار اذا خرج أهلها منها وأنها شديدة العطف والبر باولادها، وتحتمل الاخطار فى سبيل الذود عنها. وتحدث عن الحمام فذكر حبه للناس، وأنس الناس به، وانه لا يهجر الدار اذا هجرها أهلوها وأنه لا يغير... وفى الفصول التى عقدها عن الحشرات تكلم عن النحل وكمال غريزته، وعن خلق الخلية وما فيها من غرائب الحكم وعجائب التدبير، وكيف يتضافر النحل فى عمل الخلية. فمنه ما يقوم بجمع المادة من الشجر والزهر. ومنه ما يبنى البيت، ومنه ما يقوم لعمل الشمع. وتكلم عن العنكبوت وبداعة نسجه. وطريقته الحكيمة فى صنع مصيدة من خيوطه لايقاع الذباب وصيده. وتكلم عن عداوة القنفذ للحية، والحية للعصافير، والعصافير للجراد، والجراد لفراخ الزنابير، والزنابير للنحل. والنحل للذباب، والذباب للبعوض، وغير هذا من أجناس هذه المعلومات وأشباهها مما وعته صفحات كتب الحيوان. وقد ذكرنا وشلا منها، ولا ريب أن المشتغلين بعلم النفس يجدون فى هذه الكتب معلومات قيمة مفيدة. وبالأخص المهتمون بعلم النفس التجريبى الحديث الذى تدور بحوثه على درس الحيوان والحشرات. فجدير بنا أن نهتم بهذه الكتب التى سبقنا الغربيون الى تعرف خطرها وقدرها ونباهتها.

الخلاصة

ونخلص مما تقدم الى أن الجاحظ كان رجلا مثقفا بكل معنى